الفصل الثالث

مدارس التفسير التاريخي

عندما يتأمل المؤرخ في ماضي الحضارة الإنسانية وحاضرها، سوف يرى مشهداً عظيماً ومثيرا للإنسان يجعله قادراً على أن يتنبأ له بمستقبله ويتوقع للفرد أو الدولة مسارها، هذا ما نسميه " ببعد النظر التاريخي " أوالقدرة على التنبؤ ، أو بمعنى آخر الحاسة التاريخية.

إن قصة الإنسان عند المؤرخ تبدأ منذ وجود الإنسان على سطح الأرض منذ العصر الجيولوجي الرابع، أي منذ حوالي ٢٠٠,٠٠٠ سنة ق.م، وتستمر حتى بداية أول مرحلة من مراحل الحضارة الإنسانية، والتي نسميها بالعصر الحجري الحديث، والتي يتفق العلماء على تحديد ٦٠٠٠ ق.م كمتوسط لها. أي أن قصة الإنسان مع الحضارة والفكر بدأت منذ ستة آلاف سنة ق.م والتي ظهر خلالها مائتا جيل (باعتبار أن الجيل يعادل ثلاثين عاماً)، مائتا جيل ظهروا وكافحوا، وتحاربوا وتحابوا، ثم التفوا الواحد تلوا الآخر وتساقطوا كأوراق الشجر. لقد سعى كل فرد من كل جيل لتحقيق أغراضه الخاصة ومتطلباته اليومية، لكن لو ابتعدنا عن مراقبة الفرد سوف نرى حركة على مستوى أشمل، حركة إجمالية على مستوى الدول بل والجنس البشري. ويستطيع الفرد أن يحس بفارق هذا التطور لو قارن حياة المصريين القدماء كما يظهرون على الآثار، وبين حياة الإنسان المصري المعاصر، فسوف يلاحظ فرقاً هائلاً وسوف يزداد هذا الفرق كلما تقدمت الحضارة وازداد الابتكار. عندئذ تصبح المسافة بين الجد الأول للإنسان: ذلك المخلوق البدائي، وبين الإنسان الراقي المعاصر أو المستقبل أكثر بعداً.

هذه الحركة والتقدم هي حركة التاريخ. ودراسة أسباب تقدم النوع البشري وحركته التاريخية تعرف عند الكثيرين باسم فلسفة التاريخ، لكن الكثير من المؤرخين يسمونها " بمفهوم التاريخ "، لأن علم التاريخ كما يجب أن يكون عليه، ليس هو ذلك العلم الذي لا يكتفي بمعرفة كيف حدثت الوقائع، بل يتعداها إلى الحد الذي يبحث لماذا حدثت على النحو الذي حدثت عليه وليس على نحو آخر.

إن إدراك المؤرخين للمفهوم التاريخي أو لفلسفة التاريخ شيء حدث نسبياً، وهي ككل شيء آخر مرت بمراحل مختلفة؛ لأن لكل جيل نظرة يمليهاعليه واقعه الحضاري وظروفه الخاصة، فينظر إلى مفهوم التاريخ من زاوية خاصة، ويعلل حدوث الأحداث على النحو الذي حدثت عليه وليس على نحو آخر بإجابات مختلفة. إن لكل عهد فلسفة عامة، حتى وإن ظهرت أكثر من فلسفة واحدة في عصر واحد، فإنها تشترك عادة في إطار عام واحد وتشغل نفسها من أجل قضية مشتركة، مما يجعلها - ولو اختلفت في التفاصيل - مدرسة واحدة كبرى. وخلاصة القول: إن لكل جيل من الأجيال تفسير معين لحركة الأحداث التاريخية. ولكي يسهل على القارئ استعراض هذه المدارس المختلفة للتحليل التاريخي، سوف نلخص بعضها حسب تدرجها الزمني.

١- مدرسة التفسير الديني والأخلاقي للتاريخ:

تشير عبارة التفسير الديني والأخلاقي للتاريخ إلى مرحلة من مراحل الفكر، حاول فيها الإنسان تفسير ما يحدث حوله، على أساس أنه حوادث

نتجت بفعل وبإرادة قوى عليا خارجة عن إرادته، دفعت بالأحداث الى الطريق الذي هو عليه. ويحلل بعض المفسرين ذلك بوجود إحساس فطري يدفع الإنسان إلى إضفاء الصفات الإنسانية على كل شيء حوله، بل وبث الروح والحياة فيها. ولا يزال ذلك ملحوظاً في لغاتنا وتفكيرنا المعاصر. فعندما نقول: " هبط الليل "، أو اختنق القمر أو " شابت السنون " فكلها صفات مشتقة من صفات الحياة البيولوجية للإنسان.

وبمرور الزمن، حاول الإنسان في المراحل الأولى من تفكيره وأطواره الحضارية اكتشاف القدرة الخلاقة التي نظمت الكون على النحو الذي هو عليه، وإظهار القدرة الخلاقة التي تتحكم فيه من أجل تفسير الظواهر الطبيعية. ولما كانت قدرات الإنسان العلمية في تلك العهود السحيقة محدودة، فقد لجأ إلى الأساطير الدينية لتفسير الظواهر الطبيعية كالبرق والرعد والمطر وشروق الشمس وغروبها، وأطلق لخياله العنان في تفسيرها. واستمر هذا التفسير البدائي للأشياء سائداً طوال مرحلة الحضارة الإنسانية في العصر التاريخي حتى ظهور الرسالات الدينية الكبرى: اليهودية، والمسيحية، والإسلام، فألغت كل منها الفكر الوثني القديم، وقدمت بصورة منطقية تفيسيرات جديدة للعالم وحركته وللإنسان وأطواره، وهي تفسيرات لا تقوم على الخيال الوثني للعهود السابقة، بل تقوم على أساس جديد هو الأساس " الأخلاقي " الذي يرى أن عين الله ساهرة لا تنام تعاقب الشرير وتكافئ الصالح، وأن المعتدي لن يهرب أبداً من قصاص الله، وكم أهلك الله من أمم، لأنها فسدت وعصيت وحق عليها القول فدمرها تدميراً.

وكم يكون من المفيد لو اهتم علماء المسلمين بإظهار التفسير القرآني للتاريخ بصورة أكثر تفصيلاً، وإن كان الأستاذ الدكتور راشد البراوي قد قدم للمكتبة العربية كتاباً أسماه " التفسير القرآني للتاريخ " ، ركز فيه أكثرعلى التحليلات التي جاء بها الإسلام من أجل تنظيم العلاقات بين الناس، واجتهادات علماء المسلمين من أجل وضع حلول لمشاكلهم سواء بالقياس أو الاقتباس أو الاستنباط

والإسلام لكونه خاتم الرسالات الوحدانية، يتفق مع اليهودية والمسيحية في أن الحركة التاريخية ليست سوى تجل لإرادة الله وحده، لأنه هو خالق الخلق، وهو القادر وحده على التحكم فيه .

أما في مدارس الفكر المسيحي، فتتمثل آراء مدرسة التغير الديني للتاريخ على نحو أكثر وضوحاً. وأول ما يطالعنا من آراء في ذلك الحال : مؤلفات القديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠م) لقد كان أوغسطين أسقفاً على مدينة هيبون في شمال أفريقيا، وهو من أشهر آباء الكنيسة ومؤلف كتاب " مدينة الله " Civitas Dei . وتتلخص آراء هذا الفيلسوف في أن الأحداث التاريخية ليست سوى بنت الإرادة الإلهية، وأن العناية الالهية Providentia تلعب دورها في الأحداث التاريخية. وأحياناً تترجم كلمة العناية الإلهية بالقدر أوالأحداث التي تحدث فجأة ودون توقع أو استنتاج، وبناء على ذلك يرفض مثلاً الفيلسوف برتراند راسل Russel فكرة التنبؤ الكامل بأحداث التاريخ . ويضرب مثلاً على ذلك بقوله هل كان أحد من المؤرخين القدامى يتوقع اكتشاف القارة الأمريكية مثلاً وما تلا ذلك من انتقال قدر الحضارة الإنسانية في الوقت الحاضر إلى دولة جديدة ناشئة هناك

يتعدى عمرها مائتي سنة بقليل، كما أن المستقبل قد يخبيء لنا الكثير، إذاً فلابد أن يكون هناك قوى لا نراها تلعب دورها وتحرك مسار التاريخ فيها.

ولعل فكرة راسل جاءت شبيهة بفكرة القديس أوغسطين الذي يؤكد بأن الله القوي الجبار، الواحد القهار، هو الخالق لجميع الكائنات، وموجد كل قاعدة، ونظام، وهو الوهاب الواهب لكل شيء، والذي بعنايته وقدرته تقوم الإمبراطوريات أو تنهار. وقد ضرب القديس أوغسطين مثلاً على ذلك بالإمبراطورية الرومانية. وفسر عظمة الرومان بإرادة الله؛ لأنه سبحانه وتعالى عندما أراد للإمبراطورية الرومانية أن تصبح أعظم الإمبراطوريات، لكي يستخدمها لإنزال العقاب على الأمم الكافرة الجاحدة بنعمته، سلم قيادة تلك الإمبراطورية لرجال طموحين يعبدون الإطراء والمديح والمجد والتمجيد، ويسرون في عظمته الأمة الرومانية عظمة مجدهم الشخصي؛ ولهذا كانوا دائماً على استعداد للتضحية بأنفسهم مضحيين في سبيل ذلك بكل غال وثمين. وهذا بالرغم من أن القديس أوغسطين اعتبر حب المجد والعظمة رذيلة وليس فضيلة، ولكن من الدرجات الدنيا.

وعلى هذا النهج فسر أوغسطين عظمة الإمبراطور قسطنطين، وهو أول إمبراطور مسيحي يؤمن بأنه عبد تقي أسبغ الله عليه نعمته، فجعله يلفظ عبادة الأوثان والكفار.

كذلك فسر أوغسطين ظاهرة الحرب في المجتمع تفسيراً دينياً، إذ رأى أن الحرب ليست سوى إرادة ربانية مقدرة أريد بها معاقبة بعض البشر، وأن الله وحده هو الذي يضبط ميقاتها، وهو وحده القادر على إنهائها أو مدها حسب إرادته ومشيئته.

ويظهر أنصار هذه المدرسة عند مؤرخي القرنين السادس والسابع الميلاديين، والذين عالجوا سقوط الإمبراطورية الرومانية المسيحية، وتحدثوا عن الأسباب إلتي أدت الى هذا السقوط فعندما غزا آلاريك Alaric روما عام ٤١٠م واستولى عليها ودمر معظم أحيائها، قال الكتاب الوثنيون من الرومان: إن هذا ما هو إلا عقاب من لدن آلهة روما القديمة التي خلقت الإمبراطورية من قرية صغيرة من قرى سهل لا تيوم اسمها روما وجعلوها تبرز كقوة عظمى تقرر مصير العالم، والآن هجر الرومان آلهتهم القديمة مثل: جوبتر وأبوللو، ثم انتشرت المسيحية التي أنكرت بل هدمت قواعد هذه الآلهة، ثم جاء ثيودوسيوس ليبطل رسمياً عبادتها ويوقف شعائرها منذ عشرين عاماً قبل هجوم آلاريك. ومن ثم، جاء عقاب الآلهة الوثنية للرومان، بأن تخلوا عن روما وعظمتها وجعلوا البرابرة أعداء الحضارة الرومانية - والذين طالما سحقتهم روما - يندفعون، فيسقطون الامبراطورية ويستولون على قلبها، أعني روما.

وقد رد الكتاب المسيحيون بالمنطق نفسه والتفسير نفسه، فكتب المؤرخ أوروسيوس Orosius يقول بأن الرومان عانوا الكثير من النكبات والهزائم أيضاً في ظل عبادة الوثنية وقبل دخول المسيحية، وذكرأن سقوط روما ليس سوى اختبار من الله ومحنة مؤقتة أو نكسة عارضة، وأن الإمبراطورية سرعان ما تعود إلى قوتها، وأن البرابرة أعداءها سوف يهزمون ويعودون إلى حظيرتها وإلى خدمتها في ظل الدين المسيحي.

ومن أقطاب هذه المدرسة أيضا: المؤرخ سالفيانوس، الذي فسر سقوط روما على أنه غضب وانتقام من الله، لأن عباده الرومان المسيحيين

ضلوا عن سبيله، فارتكبوا المعاصي وظلموا الفقراء وفسدوا وانحلت أخلاقهم، فتركوا الشعائر والعبادات وجروا وراء الملاهي والملاعب الرياضية والمسارح وغيرها من كافة المعنويات، ومن ثم غضب الله عليهم ولقنهم درساً بأن جعل البرابرة الذين هم أدنى مرحلة من الرومان ينتصرون عليهم ويستولون على عاصمتهم روما.

بالمنطق نفسه فسر الأسقف يوحنا أسقف نيقية John Bishop of Ni-kiou سبب انتصار الإسلام والدعوة الإسلامية على الرومان البيزنطيين وانتزاعهم مصر من بين براثنهم رغم استماتة البيزنطيين في التمسك بها، فقال إن انتصار العرب ليس سوى عقاب من الله جزاءً وفاقاً على الذنوب التي اقترفها بعض الأباطرة الظالمين، من أمثال كل من جستنيان وهرقل ضد طائفة من المسيحيين المصريين، هم أنصار كنيسة الإسكندرية التي انفصلت منذ عام ٤٤٨م عن قانون الإيمان المسيحي ونادت بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح وأطلقوا على أنفسهم اسم اليعاقبة، بينما ناصر الرومان أقلية ظلت وفية لهم أطلق عليهم اسم الملكيين أي التابعين اللإمبراطور البيزنطي المؤمن بالطبيعتين في المسيح، وكان هؤلاء الأخيرون أقلية بعكس اليعاقبة الذين كانوا يكونون غالبية الشعب المصري. وقد حاول الرومان البيزنطيون استئصالهم في حركة اضطهاد لشعبهم، خاصة إبان عهدي جستنيان وهرقل، حيث ألحق هذان الإمبراطوران بالأقباط الأرثوذكسيين كل أنواع العذاب - اللانساني بسبب التعصب المذهبي، ومن ثم فسر يوحنا أسقف نيقية انتصار الإسلام على الإمبراطورية البيزنطية، بأنه عقاب من الله بسب ظلم الاضطهاد الروماني ضد المصريين.

وينطوي تحت لواء التفسير الديني للتاريخ مدرسة صغيرة محدودة هي مدرسة التفسير الأخلاقي للتاريخ. ويرجع أصول المدرسة إلى أنصار الأفلاطونية. الجديدة Neo - Platonism وبعض المفكرين اللاهوتيين. وهذه المدرسة تفسر التاريخ على أنه دروس أخلاقية على الناس أن يتعظوا منها. يقول أحد زعماء هذه المدرسة، وهو ر. ر. بتس R.R. Betts: إن الناس يدرسون التاريخ ليتعلموا كيف نال الآثمون والمعتدون عقابهم من الله جزاء ما أفسدوا وظلموا.

وبالرغم مما قدمته المدارس اللاهوتية والأخلاقية من تفسيرات للتاريخ، وبالرغم من أننا لا نرى مانعاً على الإطلاق من أن نتعظ أخلاقياً من دروس التاريخ كلما سنحت الفرصة، إلا أن المؤرخ لا يستطيع أن يفرض هذا التفسير على كل حدث من أحداث التاريخ، لأن في ذلك تطرفاً ومغالاة وتحميل للحوادث أكثر مما تحتمل، بل يعتبر في كثير من الأحيان تهرباً من البحث الحقيقي للأسباب المحركة والتي يلعب البشر فيها دورهم. كذلك يصبح منطق هذه المدرسة غير مقنع إذا ما جادلنا بأن أحداث التاريخ شهدت شخصيات كثيرة وشريرة، ولكنها انتصرت بذكائها ومهارتها على قوى طيبة ولكن قليلة الحيلة، وذلك لأن الحمائم الأخلاقية لا يمكن أن تقدرعلى الصقور الشرسة الذكية، وأن البقاء للأقوى وللأصلح بصرف النظر عن مكانته وصفاته الخلقية. وكما يقول نقاد هذه المدرسة أيضا، فإن التاريخ مليء بشخصيات يمكن أن نعتبرها شريرة ولكنها قدمت عظيم الأعمال للبشرية وللإنسانية، وأن الحقيقة التاريخية ترفض مبالغة أنصار هذه المدرسة في العقاب الذي ينتظر الظالمين والمعتدين، لكن العناية الإلهية

Providentia موجودة وتتمثل في الأحداث التي تنتج دون أي توقع أو حساب، بل إن الحروب نفسها برغم دقة الاستعداد لها لا تزال نتائجها وخط سيرها يتوقف على العناية الإلهية التي هي مشيئة الله.

ولقد أطال المؤرخون الماديون النقد لمدرسة التفسير الديني للتاريخ وركزوا في هجومهم على القديس أوغسطين فوصفوا طريقته بأنها عديمة الجدوى عند تحليل الواقع التاريخي؛ لأن على المؤرخ أن يبحث عن كل الوقائع سواء تلك التي بقيت أو رافقت الظاهرة التي يسعى المؤرخ إلى تفسيرها. كما انتقد الماديون مغالاة أوغسطين في التدين وتقوى الله وإسهابه في الحديث عن العناية الربانية دون أن يعطي اهتماما للبشر، خاصة أن التاريخ هو علم البشر وأحداثه في صورة الدول والجامعات. كما أن قول أوغسطين بأن " سبل الله لا يمكن سبر أغوارها "، اعتراف منه بأن هناك حدوداً للبحث، وقد يعني ذلك أنه من العبث أن يحاول البحث والتقصى من أجل تفسير حوادث الحياة الانسانية، وهو أمر لا يقبله الباحث العازم على رصد حركة التاريخ.

وبالإضافة إلى القديس أوغسطين، هناك فيلسوف لاهوتي آخر هو الأسقف الفرنسي الشهير بوسويه (١٦٢٧ - ١٧٠٤)، وهو مؤلف كتاب " رسالة عن التاريخ العالمي "، وفيه أوضح رأيه بأن مصائر الشعوب وقيام الإمبراطوريات واضمحلالها، إنما تنظمها العناية الإلهية، ويضرب المثل على ذلك بشعب بني إسرائيل ويقول " استخدم الله الآشوريين والبابليين لمعاقبة بني إسرائيل، ثم استخدم الإسكندر الأكبر لحمايته، ثم استخدم أنطيوخوس الثالث ملك سوريا لامتحانه، ثم استخدم الرومان من أجل

دعم حريته ضد ملوك سوريا الذين لم يكونوا يفكرون سوى في تدميره، وظل اليهود حتى عهد السيد المسيح تحت حكم الرومان - وهم لايدرون - سواعدهم لتكون أداة الانتقام الآلهي، فأبادوا ذلك الشعب العاق "، ويقول بوسيويه في رسالته أيضاً " عندما ترى الإمبراطوريات الكبرى التي هزت الكون تمر من أمام عينيك في لمح البصر، عندما ترى الآشوريين والبابليين والفرس والأغريق والرومان يتوالون ويذهبون، فإن ذلك يجعلك تشعر بأنه لا يوجد شيء راسخ وثابت بين الناس، وإنما التقلب والاضطراب هما السمة العامة للإنسانية " .

ومن ثم، فإن علم التاريخ الحقيقي هو ملاحظة تلك الدوافع الخفية التي تسبب التغيرات الكبرى والتي مبعثها الصفات المتفاوتة التي منحها الله لشعوبه في درجات ومرتبات متفاوتة. وهكذا فإن فلسفة بوسويه اللاهوتية تتميز عن فلسفة القديس أوغسطين بأنها تؤكد وتلح على وجوب البحث عن الأسباب الخاصة للحوادث والبواعث التي جعلها الله سبباً لرفعه أمة أو سحقها. وهذا في حد ذاته اعتراف من بوسويه بأن هناك أسباباً ربانية ومسببات إنسانية للأحداث التاريخية، ويعتبر ذلك الرأي من أكثر الآراء نضوجاً في مدرسة التفسير الديني لأحداث التاريخي، لأنها تقف وسطاً بين الإرادة الربانية والسلوك الإنساني.

٢- المفهوم العقلاني المثالي للتاريخ:

كان لقيام الثورة الفرنسية تأثير كبير على تغير النظرة إلى تفسير

الأحداث التاريخية فقد قام مفكروا هذه الثورة بالتمهيد الفكري لها إبان القرن الثامن عشر، ويجيء على رأس هؤلاء فولتير Voltaire (١٦٩٤ - ١٧٧٨) والذي نادى بأن الإيمان يجب أن يكون للعقل وللتفكير العلمي، ثم سعى إلى تفسير الظواهر التاريخية بالمسببات الطبيعية عن طريق التفسير العقلاني العلمي. وقد جاءت هذه المدرسة كرد فعل لجبروت الكنيسة وتعاونها مع الإقطاع والملكية، ومن ثم فقد عرفت بعدائها السافر والشديد للمسيحية ولمدرسة التفسير اللاهوتي للتاريخ.

وكانت المناسبة لاندلاع العداء بين المدرستين، هي تحليل المدرسة العقلانية لأسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية. فذكر فولتير أن أسباب سقوطها نتيجة عاملين، أولهما هجوم البرابرة الجرمان عليها مما فت في عضدها، وثانيهما سلبية المسيحية وتفشي المجادلات والهرطقات الدينية. ويتساءل فولتير : لماذا لم تسحق الإمبراطورية الرومانية هؤلاء البرابرة الجرمان، كما سحق ماريوس القنصل الروماني في عصر الجمهورية قبائل الكمبريين والتيوتون الذي كانوا أشد خطراً على روما في مطلع القرن الأخير قبل الميلاد من هجوم الجرمان عن الإمبراطورية إبان القرنين الرابع والخامس الميلاديين؟ ويجيب فولتير عن سؤاله بأن السبب هو عدم وجود القادة من أمثال ماريوس، ثم يتطرق إلى سؤال آخر : لماذا لم يوجد رجال من عينة ماريوس لإنقاذ الإمبراطورية؟ ثم يجيب لأن جوهر وطبيعة الرومان كانت قد تبدلت ولم تعد روما قادرة على إنتاج رجال بهذا القدر من الزعامة، إذ إن الإمبراطورية الرومانية أصبح لها من الرهبان أكثر مما كان لها من الجنود والزعماء، وتحول أحفاد القائد سكيبيو Scipio قاهر إفريقيا إلى رهبان

ورجال لا يعرفون سوى الدخول في مجالات دينية عقيمة، وانتقل الوقار من رجال العمل والزعامة من أمثال كاتو وشيشيرون هور تنسيوس إلى رجال الكنيسة من أمثال القديس أمبروز وكيرولوس (سيريل) وجريجورريوس. وبعد أن يحكم فولتير الاتهام بأن المسيحية هي التي أودت بحياة الإمبراطورية الرومانية، يتطرق إلى سؤال أبعد، وهو ما الذي جعل المسيحية تنتصر وتتغلغل في الإمبراطورية؟ ويجيب بنفسه بأن السبب هو الإمبراطور قسطنطين الذي اعترف بها كديانة لها كيانها، بل إنه اعتنق الدين الجديد وترك دين الأسلاف. وهنا يكتفي فولتير بهذا السبب دون أن يحلل ويبحث العوامل الحقيقية التي أدت إلى تغلغل المسيحية في الإمبراطورية الرومانية، والتي تركت إلى أن ظهرت مدرسة جديدة هي مدرسة التفكير الاجتماعي والاقتصادي.

وخلاصة رأي فولتر أن التطور التاريخي هو نتيجة لتطور أخلاق وعادات وطبائع Les moeurs الشعب في مراحل متعددة، منتجة لتطور آرائهم وأفكارهم، وأن طبائع الرومان القديمة والتي صنعت منهم أقوى أمة في الأرض، قضت عليها المسيحية التي حولتهم إلى سلبيين مسالمين، إذا ضربهم أحد على خدهم الأيمن أداروا له الأيسر، وإذا نازعهم على جزء من ثوبهم تركوا له الثوب كله. ومن ثم، اختفت الرغبة في عظمة الرومان Gloria ، واندثرت بالتالي الإمبراطورية.

وبنفس المنطق الذي حلل به فولتير سقوط الإمبراطورية الرومانية، كتب المؤرخ العظيم إدوارد جيبون Edward Gibbon مؤلفه الضخم عن تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية، انتهى فيه إلى أن طبائع الرومان قد

وصلت إلى الانحطاط بسبب ضياع الفضائل القديمة، لأن المسيحية تسببت في تدهور الروح المعنوية للرومان، وقضت على الطموح القومي وحولتهم إلى شعب مسالم سلبي، كما أن المسيحية حولت الآلاف من الرجال الأقوياء إلى رهبان وقساوسة يعيشون في الأديرة، فحرمت من قوى بشرية كانت في أشد الحاجة إليها، وبعد انتصار المسيحية ساد التمزق بسبب الصراع المذهبي الذي أدى إلى انقسام الإمبراطورية إلى قسمين متعاديين.

ومن أعلام الفلاسفة الطبيعيين الذي ظهروا إبان القرن الثامن عشر، الفيلسوف الفرنسي المجري الأصل هولباخ Holbach (١٧٢٣ - ١٧٨٩) الذي قال بأن تدهور الأمم ليس سوى نتيجة لتدهور أخلاقها وتفشي الشرور والفساد فيها، وأن منبع ذلك هو الجهل والحكم العشوائي على الأمور، وانعدام الخبرة وضيق الأفق وقصر النظر. ويعترف هولباخ بأن شعوب هذه الأمم المختلفة تحاول تبديل نظمها بحثاً عن الشفاء من أمراضها، وكثيراً ما يكون هذا التبديل والتغيير عقيماً، مثله مثل المريض الذي يتقلب في فراشه دون أن يجد وضعاً مريحاً ثابتاً. وفي النهاية تنهار هذه الأمم، لأنها عجزت عن مواجهة العيوب الأساسية فيها بالشجاعة والقوة الكافية، وتركت الأهواء العمياء تتقاذفها يمنة ويسرة كما يتقاذف الموج قارباً صغيراً.

ومن أقطاب تلك المدرسة كذلك الفيلسوف الفرنسي هلفيتيوس Hel-vetus (١٧١٥ - ١٧٧١) الذي نادى بأن أفكار الشعوب تنبع من إحساساتها في المقام الأول، وهاجم رأي الفيلسوف الفرنسي مونتسيكيو " عن الاقطاع "، لأنه من صنع القوة وهذه القوة هي التي فرضت الجهل على الناس.

إن المفهوم المثالي للتاريخ يتضمن بعض الحقيقة، لأن للرأي العام تأثيراً نابعاً عن الحكم ولكن أفكار البشر وعواطفهم ليست خاضعة للصدقة، إنما تخضع في نشوئها وتطورها لقوانين يجب أن ندرسها، ومن ثم فإنه يوجد سبب أعمق من التفسير الذي أعطته هذه المدرسة، وهو السبب الأبعد المسبب للحركة التاريخية. كما أن فلسفة جون لوك John Liche (١٦٣٧ - ١٧٠٤) التجريبية برهنت على أنه لا توجد أي أفكار أو مبادئ أو مفاهيم فطرية في وجدان الإنسان أو عقله، إنما تتكون هذه المفاهيم من واقع التجربة التي يخبرها الإنسان عن طريق الحواس. أي أن الناس يستمدون أفكارهم ومبادئهم من التجربة، لأنه لا توجد أفكار أو آراء دائمة، والأخلاق مثلا تتبدل تبعا للزمان وللمكان حسب المصلحة والفائدة العملية والتجربة الفردية والجماعية في ميدان الحياة الاجتماعية.

٢- مدرسة التفسير الاجتماعي:

يعتبر سان سيمون Saint Simon (١٧٦٠ - ١٨٢٥) في الحقيقة وسطاً بين علماء الاجتماع وعلماء الاقتصاد، بالرغم من أنه أكد في مؤلفاته بأن ميدانه هو ميدان علم الفيزياء الاجتماعي La. Phisique Sociale. وقد كان سان سيمون من ألمع المفكرين الفرنسيين الذين وصفوا فلسفة الثورة، وأحدثت آراؤه تغييراً كبيراً في الفكر التاريخي.

ويؤكد سان سيمون على وجوب دراسة الحوادث المتعلقة بحياة الإنسان الماضية لكي تستكشف قوانين تقدمها ورصد حركتها، لأننا لا نستطيع التنبؤ بمستقبل الأحداث إلا إذا فهمنا الماضي الجماعي للإنسان،

وذلك بتحليل المجتمع تحليلاً فيزيائيا، بحيث يصبح علم التاريخ كغيره من العلوم الطبيعية الأخرى، ولكي يؤكد نظريته، درس سان سيمون تاريخ أوروبا الغربية منذ سقوط الإمبراطورية، وخرج من ذلك برأيه في أن صراع المصالح الاجتماعية الكبرى، هو الذي يشكل حركة التاريخ، التي هي صراع متصل بين الطبقة العاملة من فلاحين وصناع، وبين الطبقة الإقطاعية وطبقة رجال الدين، وبذلك نفى سان سيمون رأي المدرسة المثالية التي كانت تنادي بأن الآراء والأفكار التي تسود في أي عهد، هي التي تشكل تاريخه وتتحكم في سيره، وأحل محله رأيه في أن حركة التاريخ هي صراع مصالح الطبقات الاجتماعية البانية للمجتمع والناتج من تعارض مصالحها. ويشرح ذلك برؤيته لتاريخ أوروبا الغربية منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية والذي يراه صراعاً متصلاً بين طبقة رجال الكنيسة (الأكليروس) وهم الطبقة الأولى وطبقة رجال الإقطاع (وسماهم الطبقة الثانية)، من ناحية، وبين رجال الطبقة العاملة من فلاحين وصناع (وقد سماهم برجال الطبقة الثالثة Tiers - etat)، من ناحية أخرى. ثم استعرض معالم ذلك الصراع الاجتماعي، فذكر أن الملوك في العصور الوسطى انحازوا إلى رجال الطبقة الثالثة ضد أمراء الإقطاع، فمنحوهم حقوقاً، خاصة لسكان المدن من رجال الطبقة الثالثة، مما أدى إلى ازدهار الإقطاع، فمنحوهم حقوقاً، خاصة لسكان المدن من رجال الطبقة الثالثة، مما أدى إلى ازدهار المدن الصناعية Les bourgs وأصبح سكانها الأثرياء بورجوازيين Les Bourgeois . وقد قاد هؤلاء البورجوازيون الطبقة الثالثة ضد أمراء الإقطاع، وبعد ذلك قادوا طبقتهم، عندما قامت الثورة ضد الملكية ذاتها التي كانت تحميها.

ولقد أثرت أفكار سان سيمون التاريخية تأثيراً كبيراً على عدد من مفكري عصره، ومنهم تلميذه أوجستان تييري Augustin Thierry (١٧٩٥ - ١٨٥٦) الذي أحدثت آراؤه ثورة حقيقية في ميدان التفسير الحقيقي للأحداث لقد كان تييري أشد المتحمسين للثورة الفرنسية، وخاصة لفكرة الحكومة الاشتراكية المحلية المتطرفة، أو ما يعرف أحياناً باسم الكومون الباريسي[١] La Commune Parisienne الذي كونه رجال الطبقة الثالثة خلال أحداث الثورة الفرنسية. ومن ثم، جعل تييري رجال الطبقة الثالثة محل دراسته، وألف كتاباً من أربعة مجلدات عنهم سماه " مجموعة من الوثائق غير المنشورة عن تاريخ الطبقة الثالثة "[٢]، انتهى فيه إلى أن التاريخ ليس سوى صراع اجتماعي بين الطبقات ذات المصالح. وأن الإنتاج ومصدرالثورة هم رجال الطبقة الثالثة، ولكي تصل إلى حقوقها كانت تتحالف مع الطبقات الحاكمة القومية، وأنه مامن زعيم قوي أوبطل عظيم إلا وكان وراءه رجال الطبقة الثالثة كقوة دافعة، وبدونهم ما حقق شيئاً ولا أصبح بطلاً. ولهذا نفى الفكرة القديمة القائلة بأن التاريخ يصنعه الأبطال والزعماء، وبهذا تكون هذه المدرسة قد مهدت لمدرسة التفسير المادي والاقتصادي للتاريخ.

٤- مدرسة التفسير المادي الاقتصادي:

وهذه المدرسة التي يتزعمها كارل ماركس karl Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣) نفت التفسيرات المبكرة للتاريخ، سواء تلك التي كانت ترى أن

---

(١) انشىء الكومون الباريسي في ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢، وكان مسؤولاً عما يعرف في تاريخ الثورة الفرنسية " بمذابح سبتمبر ١٧٩٢ "، حيث بلغ عدد القتلى حوالي ١٥٠٠ شخص.

(٢) Recueil des monuments de I'histoire du Tiers - etat.

التاريخ يسيره العقل المطلق، أو الزعماء والأفكار المثلى، وإنما هناك عامل ثالث أجدر بالاهتمام وهو العامل الاقتصادي، لأنه العامل الذي تسلط على سائر العوامل الأخرى. وقد نشر كارل ماركس هذا الرأي في عدة أبحاث، دعا فيها إلى إحداث ثورة اشتراكية تنفذ أفكاره، ، ويرى ماركس أن التاريخ يحكمه قوانين حتمية مصدرها حركة التاريخ ذاته، أو ما سمي بالحتمية التاريخية.

ويرى ماركس ايضا أن الوضع الاقتصادي للمجتمع هو الذي يحدد صورة نظامه ودرجة حضارته وثقافته، وأن الإنتاج ونوعه وأساليبه هو أساس النظام الاقتصادي. وأن الإنتاج لا يظل على أسلوب واحد ومستوى واحد بل دائم التطور ولكن ببطء. ومن هذا التطور يخرج تطور المجتمع، سواء من ناحية قوانينه أو أفكاره وفنونه وعقائده، وأن الإنتاج المادي لأي جماعة هو الذي يحدد مفهوم نظامها الاجتماعي والسياسي، وأن كل ما يلحق بالمجتمع سواء من ثورات أو انقلابات سببها أوضاع العمل والإنتاج والملكية، وأن النظام السياسي القوي يقوم على نظام اقتصادي راسخ ومتين، أي أن العامل الاقتصادي هو العامل المؤثر الذي يحرك العامل السياسي ويتحكم فيه.

ومن ثم يكون على باحث الظواهر التاريخية في المجتمع أن يبحث عن البواعث الاقتصادية الكامنة وراءها، خاصة في عصرنا الحاضر، حيث يلعب الاقتصاد وأساليب الإنتاج دوراً أساسياً. ولكن الماركسيين يرفضون فكرة الإصلاح التدريجي للمجتمع، بحجة أنه لا يؤدي الى نتيجة حاسمة

بل إن الصراع يجب أن يكون شاملاً وحاسماً عن طريق الثورة التي تقضي على القديم تماماً، وأن آلام الثورة وكوارثها هو الثمن الذي يجب أن يدفعه المجتمع من أجل التغير الشامل، حتى وإن كان العنف وسيلة ذلك، وأن الصراع لن ينتهي إلا بفرض دكتاورية البورليتاريا أو الطبقة العاملة.

وقد انتقد كثير من المؤرخين الماركسية ونظريتها في الثورة الشاملة والعنف الثوري، لأنه في كثير من البلدان نجحت فكرة الإصلاح التدريجي الهادي أوالإصلاح الفابي، ووفرت على هذه المجتمعات الكثير من دمار الثورة وخرابها، بل إن هذا النقد جاء من جانب الماركسيين أنفسهم فيما يعرف بالماركسية الجديدة أو الاتجاه الجديد للماركسية.

كما انتقد آخرون فكرة سيطرة العامل المادي أو الاقتصادي في التاريخ، ويقولون: إن العامل السياسي هو الأقوى والأرسخ، وأنه إذا كان العامل السياسي راسخاً وقوياً، فإن الاقتصاد فيه يكون راسخاً وقوياً، وليس العكس.

معنى فلسفة التاريخ في العصر الحديث:

وعندما نتحدث عن المعايير التي يجب على المؤرخ أن يتسلح بها ليصبح قادراً على كتابة التاريخ كتابة نقدية ، لابد أن نتساءل عن ماهية هذه المعايير المنهجية والفكرية؟. لقد حاول الكثيرون الإجابة عن هذا السؤال بطرق شتى، وصنفت الإجابات تحت الآراء الخاصة بقضية فلسفة التاريخ ومفهومه، وهي عموماً في تفسيراتها تتبع أحد الاتجاهين: الاتجاه الصوفي المثالي Mystic، وهو رأي الفيلسوف هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣٠)

ومعاصروه الذين تأثروا بالإيمان المسيحي، وهم يؤمنون بالعقل المطلق الذي هو المثل الأعلى لكل شيء، ويسير الأحداث في الكون كله. ومن ثم فإن تحركات التاريخ محسوبة ومقدرة أبدياً، وكل الحوادث تسير إلى حيث هو مرسوم لها أن تسير، وكل حادث يأخذ مبرراته من المسار العام للأحداث التاريخية. وفي ذلك تأثر هيجل بمدارس التفسير الديني التي ترجع كل شيء إلى إرادة الله وتقديره، وهذ المدرسة تفضل التأمل في معالم العصر والحياة عند دراسة التاريخ، وليس شرطاً أن نبدأه من القديم، فإذا ما اكتمل تأملنا لمعالم الحياة، أمكننا إرجاع النماذج الحاضرة إلى أصولها الأولى، أي أن هذه المدرسة تفضل أن نبدأ من التاريخ المعاصر ونتابع التقصي حتى التاريخ القديم.

أما المدرسة الثانية فهي المدرسة المادية Materialist، والماديون من ألد خصوم المثاليين. وأحياناً يعرف الماديون بأنصار المدرسة الطبيعية Naturalists؛ لأنهم نظروا إلى التاريخ على أنه فرع من فروع التاريخ الطبيعي والعلمي، الذي يسقط الجانب الروحاني ويتحرى المادة وحدها ولا غيرها، وبذلك عرفوا أحياناً باسم أصحاب المذهب الواحد " Monists ". والمدرسة المادية تقول: إنه لكي ندرس التاريخ، لا بد أن نبدأ من القديم حتى نلحظ التطور الذي طرأ على المجتمعات الإنسانية، وبذلك نتمكن من رصد حركة التطور. وعلى ضوء ذلك، نضع معايير للتاريخ، وهذه المعايير سوف تهدي المؤرخين إلى المنهاج الصحيح عند كتابة التاريخ.

وقد اشتد الجدل بين أنصار المدرستين المدرسة المثالية والمدرسة الطبيعية

منذ وقت طويل حول البحث عن النمط الذي تسلكه الحركة التاريخية على الوجه الأعم ونوع اتجاه هذا التحرك. والجدل طويل ومعقد، وهو فلسفي أكثر منه تاريخي، ويدور الجدل بين ثلاثة آراء هي:

١- **أن التاريخ يسير نحو التقدم** Doctrine of Progress:

إن هذا التقدم التاريخي يتم عن طريق صراعات شاملة بين أسس قديمة للتنظيم الاجتماعي وأسس جديدة، ولكن في الوقت نفسه يرون أن التطور التدريجي لا يؤدي إلى نتيجة حاسمة، لأنها لا تقضي على القديم بل تحوره وتطوره، ومن ثم فإن الحركة التاريخية في حاجة إلى دفعة قوية للقضاء على القديم جملة وتفصيلاً عن طريق الثورة الشاملة، وأن العنف وما يسببه من كوارث وآلام، هو الثمن الذي يدفعه أي شعب - يبغي تحقيق طفرة كبيرة ووثبة عالية ينتقل بفضلها من القديم إلى الجديد. والماركسيون هم أصحاب هذه النظرية التقدمية، وإن كانت هذه النظرية لاقت مراجعة من المفكرين الجدد، الذين قبلوا الإصلاح والتطور التدريجي الذي أدى إلى نتائج طيبة في كثير من البلدان خاصة بلدان أوروبا واليابان، وأن الثورة والعنف لم يعودا أنسب الطرق للتغيير التقدمي.

٢- **نظرية العودة التاريخية** Doctrine of Retrogression:

وتتلخص في القول الشائع بأن التاريخ يعيد نفسه، وكانت هذه النظرية سائدة عند مؤرخي العصور القديمة، حيث عبر أفلاطون عنها في محاورته نيمايسوس Nimaeus، ثم وردت لأكلوج الرابع عند فرجيل

وتلاه سائر المؤرخين القدماء. غير أن النظرية الحديثة المتصلة بعلم الفلك جردت هذه النظرية القديمة من أساسها الفلكي الذي اعتمد عليه أفلاطون، وبالتالي لا يوجد دليل واحد على صحتها. ومما يجدر ذكره أن المؤرخين القدماء كانوا لا يهتمون بتاريخ البشرية ككل، بل بالحوادث الفردية التي قد تتكرر نماذجها، وهذا ما دفعهم إلى الإيمان بفكرة العودة التاريخية.

٣- نظرية الدوائر اللولبية:

وهي توفق بين المدرستين السابقتين، وترى أن التاريخ يتقدم والجنس البشري يرتقي بتقدم الخبرات الحضارية المستمرة، وهذا هو الاتجاه العام للحضارة الإنسانية، لكن في الوقت نفسه تمر كل حضارة فردية بدورة ثلاثية هي النشوء والاكتمال ثم الانهيار Rise, Zenith, and Fall . وفي بعض الأحيان يكون موت حضارة هو ميلاد حضارة جديدة أكثر تقدماً في منطقة أخرى من العالم. ويعدد أرنولد توينبي عدد الحضارات التي قامت على الأرض بأنها واحد وعشرين حضارة، لم يتبق منها سوى خمس حضارات، أما الباقي فقد تحلل واندثر، والذي بقي منها هو الذي استطاع أن يواجه التحديات ويستجيب لها بوثبة تحقق التوازن، ثم تتقدم منه إلى وضع غير متوازن يمثل في حد ذاته تحدياً جديداً يتطلب بالمثل استجابة، وعندما تتوقف حضارة عن مقابلة التحدي باستجابة، أو عجزت عن ذلك، أوكانت الاستجابة غير فعالة، يكون ذلك بداية التدهور والاضمحلال. وقد يكون مصدر التحدى من الداخل عن طريق البروليتاريا الداخلية التي تنسحب عن القيادة المسيطرة، أو يكون التحدي عن طريق البروليتاريا الخارجية أي

الشعوب التي تربط الدولة القاهرة وتتربص بها وتتحين فترة ضعف للانقضاض عليها .

حقيقة أن كل الحضارات تمر بالمراحل الثلاث : الميلاد ، والاكتمال ، والشيخوخة ، لكن لا نستطيع الجزم بأنها حضارات متشابهة أو أن تعريف التاريخ بكلمة " حضارة " يشكل صعوبة فلا يزال هناك خلاف على تحديد كلمة " حضارة " . كما أن الأحداث التاريخية الكثيرة والمتشعبة أكبر من تخضع لقوانين أو مقاييس فكرية معينة . وهي لا تسير في شكل معين ، لا في خط تقدمي مستقيم ولا بالخط الراجع إلى الخلف ، بل تسير في خط متعرج . إن نظرة على تاريخ العالم القديم الذي يبدأ من خمسة آلاف سنة مضت ، لا يظهر مثل هذه التصورات ، ولا تسير أحداثه في خط معين ، بل يراها البعض أنها تسير حيثما اتفق ، فليست حياة الشعوب آلة تعمل بطابع واحد معين حتى يمكن تصنيفها بتلك المقاييس السالفة الذكر . إن الذين يحاولون وضع معايير لحركة التاريخ يبحثون قضايا فلسفية وليس قضايا تاريخية ، ويستخدمون الأحداث التاريخية ليبرروا آراءهم الفلسفية ، وبذلك يصبح التاريخ وسيلة للفلسفة ، وهو أمر مخالف لطبيعة الأشياء . ولهذا رفض برتراند رسل مثلاً الإيمان بالاتجاهات السابقة للحركة التاريخية ، لأنه لا يوجد لها مجرى ثابت ، فالمستقبل القريب قد يكشف عن حوادث قد تجعل مسار التاريخ مخالفاً لما قيل ، كما أن مشيئة الله التي تأتي من حيث لا ندري ولا نتوقع ، لا تخضع لهذه الحسابات الهندسية للتاريخ . ومن ثم ، فإن دارس التاريخ لن يستفيد كثيراً من الجدل حول فلسفة التاريخ في صياغة منهجه الخاص ، اللهم إلا إثراء ثقافته التاريخية .

قضية الاختيار التاريخي

لو سأل باحث التاريخ نفسه ماذا أختار من موضوعات تاريخية عند الكتابة؟ يجيء الرد بأنه يختار ما هو مهم. فالتاريخ مليء بأحداث لا قيمة لها، لأنه لا تأثير لها، وهذه الأحداث يطلق عليها أحياناً " الكم المهمل " . ومن الضروري التركيز على الأحداث والأفكار التي كان لها صدى واسع وكان لها رد فعل ونتائج، فلا أحد يهتم بالأحداث المغلقة التي بلا رد فعل، فهي أشبه بالأزقة المغلقة Culs de Sac لا يمر فيها أحد، لأنها لا توصل إلى شوارع أخرى. وكلما كان للحدث صدى أوسع، كلما كان أكثر اهتماماً وأجدر بالدراسة والاختبار، فموضوعات التاريخ لا تدرس اعتباطاً أو عفواً، كما أنه لا يوجد عند المؤرخ الحق نماذج جاهزة يصل التاريخ عليها، بل عليه أن يدقق في الاختيار، وأن يبحث بنفسه ولنفسه ليجد النموذج الأفضل لبحثه بعد أن يكون قد كون لنفسه فكرة واضحة عن طبيعة وأهمية علم التاريخ .